الفصل الثاني :

فهم الشخصية الإنسانية

والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه   إن الهوى ما تولى يُصم أو يَصم
وراعها وهي في الأعمال سائمة   وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة   من حيث لم يدر أن السم في الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع   فرب مخمصة شر من التخم

٥ الإمام : البوصيري

هناك طريقتان لفهم الشخصية الإنسانية فهما صحيحا :

الأولى : أن نسبر غور الشخصية من خلال دراستها دراسة شاملة ، ومعرفة المؤثرات التي أثرت فيها على مدى مراحل عمرها ، وأيا من من تلك المؤثرات كان أثره عميقا وممتدا ، وكان له قسط كبير في تشكيل الشخصية وصياغة طبعها وتحديد ميولها وأهدافها وطموحاتها . وإذا قدر لنا إنجاز هذا الأمر على أكمل وأتم وجه ، نستطيع أن نفسر كل أقوال الشخصية ، ونحلل أفعالها وتصرفاتها ، وندرك الدوافع والبواعث التي تحرك الشخصية ؛ لأننا إذا أدركنا أعماق الشخصية فقد سهل علينا بعد ذلك فهم الشخصية في ماضيها وحاضرها بل التنبؤ والتوقع لما سوف تفعله والطريقة والأسلوب الذي ستتخذه وتعالج به مختلف وكافة المشاكل والأزمات التي تصادفها وتعترض طريقها .

الثانية : أن ندرس ونحلل ونفسر كل أقوال وأفعال وتصرفات الشخصية لنتمكن من خلال هذا من رسم صورة كاملة وتامة للشخصية ، بحكم أن الأقوال والأفعال تكشف وتظهر طابع وطراز الشخصية ، وتعلن لنا ما خفي وتوارى أو ما استبطنته الشخصية .

ورب معترض على تلك الطريقة ، بحجة أن الشخصية لن تقول ولن تفعل إلا ما يتوافق مع الصورة التي تريدها أن تنقلها للآخرين ، فهنا عنصرا الإرادة والقصد متوافران ، وهذا قد يضلل الدارس للشخصية .

والرد على ذلك ، أن الدارس لن يكتفي بفعل أو موقف صادر عن الشخصية وإنما سيدرس مواقف وأفعال كثيرة للشخصية في مختلف مراحل العمر ، وفي أحوال وظروف متعددة للشخصية ، في حالة رضاها ، وفي حالة غضبها ، في حالتها والأمل يدفعها في طريقها ،وفي حالتها والإحباط يعوق مسارها ،وفي أحوالها العادية والمعتادة ،وهي محاطة بالمآزق والأزمات . إذا تم رصد وتسجيل كل هذا وكذلك الأخذ في الاعتبار انطباعات وآراء المحيطين بالشخصية ، في تلك الحالة لن

تستطيع الشخصية - مع توافر كل تلك الأمور - أن تبدل أو تغير من جوهرها الحقيقي ، ولن يكون الأمر عسيرا على الدارس - بعدما تجمعت له كل تلك الدلائل والشواهد - أن يخرج بتوصيف صادق وحقيقي للشخصية .

ولكن أي الطريقتين أفضل ، أو أقدر على إعطائنا صورة صادقة أو توصيف حقيقي للشخصية ؟

في الحقيقة ليس هناك أفضلية ، ولكن ظروف أو طبيعة الشخصية هي التي تحتم الطريقة التي يستعين بها الدارس ، وما يتوافر لدى الدارس من معلومات وبيانات وإحصاءات .

فإذا كان لدينا بيانات مستفيضة عن أقوال وأفعال ومواقف الشخصية وليس لدينا أي معلومات كافية عن المؤثرات والمواقف التي تعرضت لها الشخصية فإن الطريقة الثانية هي التي تفرض نفسها . أما إذا كان لدينا بيانات مستفيضة عن تاريخ وماضي الشخصية ومراحل نموها وتطورها ، فإن الطريقة الأولى هي الأفضل أو الأيسر .

○ عقبتان

الدارسون للنفس الإنسانية تجابهم عقبتان :

- مدى تعقد وتشابك واستعصاء تلك النفس على الفهم ، وأن تفك هذا التعقيد ، وتبسر هذا التشابك ، وتذلل هذا الاستعصاء ، أنت في حاجة إلى جهد خارق ووقت مديد .
- أن الدارس للنفس الإنسانية في الأصل هو إنسان ، فموضوع الدراسة النفس الإنسانية ، والقائم بالدراسة إنسان ، والمناهج التي تطلق في الدراسة نتاج تفكير ، وتأمل إنساني بحت ، فمهما تسلح الباحث بالنظرة الموضوعية والتجرد فإن كل هذا لا يخرجه عن كونه إنسانًا ، ولا ينفي عنه نفيا قاطعا إنه جزء مما يدرسه ويبحثه ويفحصه ، "تعد دراسة النفس

البشرية والتوصل إلى كنهها وأبعادها ومكوناتها من الأمور الصعبة ؛ لأن النفس الإنسانية ... بل الطبيعة البشرية ذاتها ... شديدة التعقيد أو هي في الواقع محيرة ومثيرة !!

ولعل هذه الصعوبة تدفعنا إلى محاولة دراسة الطبيعة الإنسانية دون أن نغرق في متاهات النفس ، وميتافيزيقا الإنسان وعلى الرغم من هذا الاتجاه نحو دراسة الطبيعة الإنسانية فإن الصعوبة قائمة أيضا ...لأنه لا يوجد شيء على ظهر هذه الأرض محير ومثير للمشكلات والمتاعب مثل الإنسان ، ذلك الذي صنع صنعا عجيبا وفريدا ومخيفا "[٣]

ويزداد الأمر صعوبة وعسرا وتعقيدا لهؤلاء الذين يدرسون الشخصية الإنسانية ؛ لأنهم بعد تغلبهم على العقبتين السابق ذكرهما ، مطالبون بتصنيف النفس إلى أصناف ، واستخلاص السمات الجسمية والنفسية والعقلية والفكرية التي تميز كل صنف ، ولابد أن تكون تلك الصفات في مجموعها نظامًا متكاملاً.ليس هذا فحسب ، بل يتسم هذا النظام بسمة الثبات – وإن يكن نسبيا – فأي صفات لا تكون في مجموعها نظاما متكاملا يعطي للشخصية وحدتها المستقلة ، في صفات مستبعدة، وأي نظام – للشخصية – لا يوسم بالثبات هو أيضا مستبعد."الشخصية: نظام متكامل من الصفات الجسمية والسمات النفسية التي تتميز بالثبات النسبي والتي تميز الفرد عن غيره من الأفراد كما تحدد أساليب نشاطه وتفاعله من البيئة الخارجية المادية والاجتماعية التى يعيش فيها.

وترتكز هذه التعريفات على مجموعة من الأركان الرئيسية المميزة للشخصية الإنسانية وهذه الأركان هي :

التميز :بمعنى أن كل فرد يتميز بخصائص شخصية تخالف تلك الخصائص المميزة لغيره من الأفراد : أي أن الشخصية الإنسانية تختلف ممن شخص إلى آخر.

٣- الإنسان وصحته النفسية – د . سيد صبحي – صفحة (٧)

الحركيـــة : بمعنى أن الشخصـية الإنسـانية هي محصلة التفاعل للعلاقة الحركية المستمرة بين الإنسان والبيئة المحيطة به أي أن الشخصية الإنسانية هي نتاج التفاعل الاجتماعي .

الشـــمول: بمعنى أن الشخصية الإنسانية تنظيم من سمـات *traits* وخصائص معينة تميز الفرد وتحدد استعداده وتعبر عن مجموعة من توقعات لتصرفاته في المواقف المختلفة " [٤]

إذن الشخصية هي مجموعة الصفات والخلال والسمات الفكرية والنفسية والجسدية والوجانية التى تمكنني أن أحدد أو أحصر فردا بعينه لا يتشابه مع الملايين غيره ، وهي تشمل في مفهومها نوعا من التحديد القاطع الجامع المانع. وهي تتسم بالثبات والتغير في آن واحد ، بمعنى أن الصفات والسمات التي تميز الشخصية ثابتة ومستقرة ، بينما هناك نوع من الحركة والتفاعل والتدل والتحول في المشاعر والأفكار والرؤى والمواقف والمراحل العمرية ، استجابة لمبدأ النمو والتطور. " ((فالشخصية)) كلمة واحدة في اللغة ، ولكننا نخطئ أبعد الخطأ إذا تصورناها شيئا واحدا لأنها تنطوي تحت عنوان واحد وهي أشياء لا تحصى من الغرائز والمدارك والأحاسيس وعلاقات المجاوبة بينها وبين العالم الذي تعيش فيه وهي بهذا الخليط الواسع في حركة دائمة لا تستقر على وجهة واحدة برهة من الزمن ولا تعهدها في الصحة ولا في الشباب كما تعهدها في المرض أو في الهرم ، ولا تصور فيها النزعة الواحدة من مصدر واحد في جميع الأوقات والأحوال .

فهي تختلف بين حالة وحالة ، وتختلف بين سن وسن وتختلف على حسب العلاقة بينها وبين هذا الإنسان وذاك الإنسان وتختلف على حسب العلل والبواعث التي تحركها إلى الأعمال " [٥]

٤- المصدر السابق – صفحة (٦٠)
٥- المرأة في القرآن – عباس محمود العقاد – صفحة (٤٩)

نعم إن حصر الإنسان داخل إطار شخصية محددة ومميزة ، وأن يكون هذا التحديد والتمييز صادقا ومستوفيا وشاملا ، فهو من العسر بمكان ، ولكنه جهد شاق يقابله مكسب عظيم ، أنك تستطيع أن تفسر وتحلل وتعرف كل ما يخص الشخصية . لا شيء أمامك مبهم أو غامض أو مستغلق . لا شيء متوارٍ أو خفي أو يكتنفه الظلام ، كل شيء مبرر ومربوط بأسبابه وعلله . والشخصية أمامك كيان متكامل ونظام متماسك متناغم بديع ، يتفاعل ويتعاطى مع كل من حوله ، ويمر بمراحل نمو وتطور وفقا للسنن التي تحكم أو تضبط النفس الإنسانية .

والإنسانية اليوم في حاجة ماسة – عن ذي قبل – أن تقف طويلا أمام تجربة شخصية استطاعت أن تقود العالم إلى الخير والعدل والأمن والسلام، وكانت أدواته ووسائله الحكمة والموعظة الحسنة . وكان هدفه وغايته تطهير النفس الإنسانية من أدرانها وأوشابها ، ليسهل بعد ذلك إقناعها بالصورة المثلى والجديدة التي يجب أن يكون عليها الإنسان

- **دراسة شخصية الرسول :**

وتعد دراسة شخصية محمد – ﷺ – مغنما عظيما ومكسبا كبيرا لعلم دراسة الشخصية ؛ لأن كل ما يحتاجه الباحث أو الدارس موجود وبوفرة ، وموثق توثيقا صادقا ، فهناك نص مقدس ، يعالج ويغطي مساحة من شخصية ونفسية الرسول ، ويكشف عن أدقّ الخوالج النفسية له ، وهو القرآن الكريم . وأيضا هناك نص بذلت فيه مجهودات جبارة وطاقات من العسير تقديرها لتوثيقه وتصنيفه في مستويات ودرجات من القوة والصحة ، وهي أحاديث الرسول ، فهذان مصدران يمنحان الدارس والباحث – بسخاء – كل ما يحتاجه . ثم هناك مصدر ثالث – وإن لم يرق إلى مستوى المصدرين السابقين من حيث الصحة والصدق والتوثيق ، إلا أنه يمدنا بمعلومات ضافية – وهو آراء ونظرة وانطباعات المحيطين بالنبي .

وبذلك تتوافر مادة لا حد لثرائها ، وهذا في حد ذاته يمثل صعوبة لأي باحث لأنك أمام طوفان وفيض لا ينقطع من المعلومات عن شخصية الرسول ، ولا نستطيع أن تأخذ هذا وتترك ذاك ، لأن كل كبيرة وصغيرة لها قيمتها واعتبارها وتكشف عن جانب هام من جوانب شخصية الرسول ، ولن يستطيع أي باحث أن يلم ويجمع كل ما يتعلق بشخصية الرسول ، لأن هذا خارج الطوق والقدرة والسعة هذا بالإضافة إلى أن هذا يمثل ثقل على القارئ ، وغير المتخصص ، الذي لا يريد أن يعرف كل شيء ، وإنما أشياء ، وفي نفس الوقت تلك الأشياء التى يعرفها لا تضيع عليه فائدة ونفع الأشياء التي لم يعرفها ، بمعنى أنه - القارئ - يريد أن يخرج له من هذا الكم الهائل من المعلومات والمواقف والفعال والروايات والآيات بشخصية أو طراز نمط شخصي يعرفه ويألفه ويدركه مستوعبا كل ملامحه وسماته وصفاته وخلاله ، عند ذلك يستطيع أن يتغلغل في أعماق الشخصية ، ويعرف دوافع الأفعال وسبب التصرفات ومحرضات الأقوال ، يستطيع أن يستحضر شخصية الرسول في زمنه ووقته ، ويعرض عليه المشاكل والمآزق والأزمات ، ويسأل نفسه : ماذا كان سيفعل الرسول ، وماذا كان سيقول ، وماذا كان سيتصرف ؟ ويخرج بالإجابة الصحيحة ، وهي وإن لم تكن متطابقة تمام التطابق مع شخصية الرسول ، إلا أنها لا تبتعد كثيرا ، على الأقل إن لم يوافق الرسول عليها ، فقد لا يرفضها ، لأنها تقضي حاجة أو تحل مشكلة من مشكلات زمننا وعصرنا بم يتناسب مع ظروفنا وأحوالنا.

إذا نجحنا في فعل ذلك ، فسنجد الرسول بيننا ، في حياتنا اليومية ، في البيت ، في الشارع ، في العمل ، في أوقات جدنا ، وفي ساعات لهونا ، في حالات رضانا ، وفي ظروف غضبنا ، مستهدين ومسترشدين به ، في عسرنا ويسرنا ، في رخائنا وشدتنا .

○ **المنهج :**

ومنهجنا في تلك الدراسة أننا سنختار بعض المواقف ، وليس كل ، وبعض الأقوال ، وليس كل ، وبعض المشكلات والمآزق ، وليس كل ، تلك المواقف والأقوال والمشكلات والمآزق ،التي تساعدنا أن نكون صورة – نأمل أن تكون – كاملة ومتكاملة ، تامة ومتممة ، لشخصية الرسول ، وافية ومستوفية ، بكل أبعادها الإنسانية والبشرية والنبوية ، فهنا تعادل وتوازن دقيق ومحكم في الشخصية ، فلا جانب طغى على جانب ، ولا جانب انتقص من جانب .

فهو بشر في قمة بشريته ... بدون زيادة أو نقصان .

وهو إنسان في قمة إنسانيته ... بدون زيادة أو نقصان .

وهو نبي في قمة نبوته ... بدون زيادة أو نقصان .

وهو رسول في قمة رسالته ... بدون زيادة أو نقصان .

ولم يكن هناك تصارع بين تلك الجوانب ، ولا اختلاف ولا تنازع ، وإنما كل جانب كان يتمم بقية الجوانب ويعضده ويؤازره ويؤكده ، فبشريته لم تنتقص من نبوته ، وبشريته لم تطمس أو تمحو نبوته .

والذي سيرجح اختيارنا لتلك المواقف والأفعال والتصرفات والأقوال دلالتها الواضحة والمباشرة والأكيدة والصادقة على شخصية الرسول ، وكونها أحدر من غيرها على جلاء هذا التكامل النادر والعجيب ، ولا نبالغ إذا قلنا أنه تكامل وتتام لا مثيل له من قبل ، ولا من بعد ، " وإنما يعنينا من الحادثة التي نعرض لها ومن الفترة التي نستبينها أنها وسيلة إلى مقصد واحد : وهو التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية أو حالة من أحوال النبل والأريحية فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ

الإنساني وتخرجه من غمـ _ التيه والظلمة تسلك به مسلكا غير مسلك التخبط والضلال " [٦] .

وفي دراستنا تلك قد نقترب اقترابا شديدا من الرسول . وقد نبتعد عن الرسول . وقد نتجه ناحية اليمين . أو ناحية اليسار . لكي تكون الصورة أقدر على الإلمام بكل الملامح والسمات . ولنستطيع أن نضع الصورة داخل الإطار الصحيح والصادق والمناسب لها . لنكون – نحن – أقدر وأجدر على الوصول إلى حقيقة شخصية الرسول ؛ لأن تلك الدراسة متعلقة بنا . وليس بشخصية الرسول . فلن تضيف شيئا للرسول . بل أنها قاصرة وناقصة . إذا انتظرنا منها أن توفي حق الرسول . لأن إذا الله وفَّى حق أحد . فإن كل محاولة لتوفية هذا الذى وفاه حقه مقدر لها الإحباط والفشل . لأن ليس بعد توفية الحق من جانب الله معقب .

تلك الدراسة متعلقة – في المقام الأول – بنا . كيف يجب أن ننظر للرسول ؟

كيف يجب أن نفكر فيه ؟

كيف يجب أن نتصوره ؟

كيف يجب أن نتعاطى معه . نتعامل معه . نتشارك معه . نتقاسم معه أوقات الفرح والسعادة والأمن والسلام ؟ نتقاسم ساعات الحزن والألم والمعاناة والشدة والقلق ؟ .

وتلك الدراسة ليس من هدفها إضفاء جلالا وعظمة إلى شخصية الرسول لأنه كان أول من سيعرض ويرفض تلك الدراسة . فقد كان يضيق بالمدح والثناء لأن المادح والممدوح قد يسوقهما ويدفعهما المدح إلى طريق لا يحمد عقباه . هذا إلى الكذب والمبالغة والتزييف . وذاك إلى الكِبْر والعُجْب والغرور . وهذه في حد ذاتها سمة من سمات شخصيته . أنه عليم وخبير بمسالك النفس الإنسانية . وكان

٦- ذو النورين – عثمان بن عفان - عباس محمود العقاد – صفحة (٧)

النفس بكل ما تحويه من نوازع ودوافع وغرائز سجل فتح له ، فهو يطلع عليه ويطلع الآخرين يستهدي ويهدي ، يسترشد ويرشد ، فهو كما قال عن نفسه :

(أنا مدينة علم) وستظل شخصية محمد يجد فيها أبناء كل زمان ما يبتغونه من مثل وأسوة ، مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة والظروف والأحوال والشخصيات ، إلا انه لسعة تلك الشخصية وعمقها وشمولها وثرائها غير المسبوق وتجذرها في الطبع الإنساني فإنها ما برحت معينا لا ينضب ، ورافدا ثريًا لا يجف وغيثًا لا ينقطع يروى ظمأ العطشى للهدى والرشاد ، ونورا يهدي الضالين والحائرين .